عصر الإرهاب الدولى والجريمة السياسية!

محمود عبد المنعم مراد

التحرير

لم نعد نعيش فى عصر الفضاء ، أو عصر الالكترونيات ، أو عصر البترول ، أو عصر الجن والعفاريت ، ولكننا أصبحنا بحق ، نعيش فى عصر الإرهاب الدولى ، والجريمة السياسة ! فما يمر صباح أو مساء حتى تطالعنا وسائل الإعلام بحادثة احتجاز رهائن ، أو نسف سفارة ، أو مصرع شخصية سياسية ، فى كل أنحاء العالم ، الأول والثانى والثالث ، حتى تكاد تصبح هذه الظاهرة مسألة عابرة لا يقف عندها المفكرون ولا يقيمون لها وزنا أو حسابا . فهل أصبح القتل والاغتيال والتعذيب والابتزاز ، والعدوان العلنى على حياة الناس وممتلكاتهم ، أمرا عاديا ، وسمة من سمات العصر الجديد ؟

● الملك حسين

● ستالين

كيف يمكن أن يقوم توازن بين هذا التقدم العلمى المتطلع إلى القمر والمريخ والزهرة ، وهذا التأخر الأخلاقى الذى يرد الناس إلى عصور الظلام الأولى ؟ كيف يمكن أن تسيل دماء الناس ، وتشبى حياتهم على هذه الأرض ، بكل هذه البساطة وهذا الاستهتار المشائن ، مع أن الحياة الانسانية هى أثمن ما فى الوجود ، ورفاهية الانسان وأمنه هى الأمل المنشود ؟ هل جن جنون العالم ؟

ان الرهائن الأمريكيين محتجزون فى إيران منذ عدة أشهر . وعدد من السفراء قالوا محتجزين فى بوجوتا عدة أسابيع . ثم اقتحم عدد من الإيرانيين سفارة بلدهم فى لندن وقالوا يحتجزون حوالى عشرين رهينة ستة أيام ، إلى أن استطاع البوليس البريطانى اقتحام السفارة وتخليص الرهائن ، بعد أن سقط عدد من القتلى واحترقت دار السفارة .

وفى مختلف عواصم العالم ، تتوالى الأنباء عن مصرع عديد من البشر ، المعارضين لبعض الحكومات أو الهيئات السياسية . بل إن بعض الدول تثير رعاياها المعارضين لها بالقتل ، صراحة دون مواربة ، ولا تكتفى بالانذار ، بل تنفذ وعيدها فعلا ، وما حدث للرعايا الليبيين فى الأسابيع الماضية خير حاف على أحد . وقد اضطرت بريطانيا وأمريكا إلى اتخاذ اجراءات دبلوماسية مع الحكومة الليبية من جراء هذا التهديد العلنى بممارسة قتل معارضيها الذين يعيشون فى الخارج . فهل تحولت الحكومات نفسها إلى عصابات قتل وإرهاب ، ولم تعد القوانين تعنى شيئا ، ولم يعد للأخلاق وجود ، ولم يعد للمجتمع الدولى حرمة تصان ، وأصبحنا نعيش فى غابة يتربص فيها كل أحد بأخيه ، دون اعتبار لأى قانون أو عرف إنسانى متمدين . . .

ومن دواعى الأسف أن العنف يولد مزيدا من العنف ، والعدوان ينتج مزيدا من الانتقام ، وهكذا تسيل الدماء بغيا وبدارا . وإذا كانت دولة كبرى تعتدى على جارة صغرى بمائة ألف جندى مدجج بأحدث أسلحة الفتك والدمار ، غير عابئة بالاحتجاج الدولى وعبارات الاستنكار ، فما الذى يمنع باقى الدول من أن يعتدى بعضها على حدود بعض ، وما الذى يحول بين الحكام المستبدين وبين قتل رعاياهم . إن عدوى العدوان ميكروب سريع الانتشار ، وإذا وقف العالم المتحضر مكتوف اليدين أمام عدوان دولة كبرى ، فسوف يقف مشلولا عاجزا ساكتا أمام العدوان على الأشخاص واحتجاز الأبرياء كرهائن ، وقتل الخصوم فى وضح النهار ، علانية على مشهد ومسمع من المجتمع الدولى بأسره .

ان عالم اليوم يسوده الخوف ، دولة من دولة أو أشخاص ، وشخص من دولة أو أشخاص ، ويتوالد الخوف وينمو فى الظلام وأنظمة الاستبداد . ولا بديل من الخوف إلا ضوء الحرية . حرية المجتمع الدولى وسلامة الأمن المستقر ، وحرية الأوطان وحرية الأفراد داخل بلادهم . فليكن شعار الإنسان الآن فى كل مكان ، هو الحرية ، ليتحقق السلام ، ويستقر الأمن ، وتمضى المدنية قدما إلى الأمام !

مفاوضات الحكم الذاتى

القرب الموعد المحدد لانتهاء مفاوضات الحكم الذاتى . وحتى كتابة هذه السطور ، لا يوجد فى الأفق ما يجعل المرء يتفاءل بالوصول إلى نتيجة مرضية . فاسرائيل لا تزال تتمسك بوجهة نظرها الخاصة ، وهى فى أبسط الكلام وأوضحه ، تريد الأرض باسم الأمن . بينما ترى مصر أن الأمن والأرض متعارضان . فالأمن يجئ بالسلام ، والسلام يجئ بأن يأخذ كل ذى حق حقه . . .

والموقف فى القضية العربية متوتر . وأمريكا ، رغم تأكيداتها المستمرة باهتمامها المتواصل بحل قضية الشرق الأوسط ، فإنها فى واقع الأمر أصبحت مشغولة بالانتخابات ، وبمواجهة الروس وبمشكلة إيران ، بالإضافة إلى مشكلة الطاقة والمشكلات الاقتصادية والداخلية الأخرى .

والفلسطينيون ، أصحاب القضية ، لا يريدون حلا ، انما هم يتذوقون حلاوة الوضع الراهن . فئات الألوف منهم يعيشون فى مختلف أنحاء العالم العربى ، بين أيديهم الثروة والسلاح والرهبة . وزعماؤهم يملكون الملايين ، ويحبون حياة الأباطرة ، ويركبون الطائرات من عاصمة إلى أخرى ، ويتزلون فى أفخم الفنادق ، وينادون بأعلى الصرخات والتصريحات والتهديدات . وكفى الله المؤمنين شر القتال . أما الذين يقاسون بالفعل من ضياع الأرض وانتهاك الحق ، فهم المساكين الذين يعيشون فى خيام اللاجئين . أو يمارسون الحياة الشاقة فى الأرض المحتلة . وأولئك وهؤلاء لا حول لهم ولا طول ، بل هم مشاقون وراء ذوى النفوذ من أبطال الأحاديث الطنانة أمام مكبرات الصوت . والدول العربية الأخرى المواجهة لإسرائيل ، تفض يدها من الأمر ، فسوريا راضية عن اغتصاب الجولان ، ولبنان محتل بالجنود السوريين ، منقسم على نفسه أشد انقسام ، مختل الأوضاع فى الجنوب والوسط والشمال . والملك حسين لا يبدى حراكا ، لأن الضفة الغربية خرجت من بين يديه ، فلماذا يشغل باله . والعرب الآخرون يتفرجون حائرين أو شامتين أو حائفين أو مترددين ، والأموال بين أيديهم كالتراب .

ونحن وحدنا نناضل . ونأخذ ثمن النضال تهجما ونقدا ظالما وحقدا أسود . ولماذا ، كان للكثيرين من المصريين أن يتساءلوا : ولماذا كل هذا العناء من جانبنا ؟ أليست بلادنا أحق بهذا الجهد المبذول من التفخ فى التراب المقطوع ؟

والعجيب فى الموقف ، أننا آخر الخاسرين ، إذا كان فى الأمر خسارة ، وأقل المستفيدين إذا تحققت بعد طول المعاناة فائدة . ونحن نقول إن هذا قدرنا ، وأن علينا التزاما ، وأننا تعهدنا بوضع الفلسطينيين فى أول الطريق المؤدى إلى تقرير مصيرهم ، وإلى آخر هذا الكلام ، الذى بدأ يصبح موضعا للتشكك والتساؤل من

الكثيرين . وفهم الحق فى ذلك . لقد فعلنا كل ما فى وسعنا ، حربا كان ذلك أو سلاما . وبذلنا الكثير من التضحيات ، أرواحا ومالا . واستطعنا أن نحرر أرضنا ، ولكنا لا نزال نشعل بالنا حتى الآن برد حقوق الآخرين ، الذين يرفضونها ، ويتهموننا بالخيانة . أليس من العدل والحكمة الآن أن نتوقف ، ونعيد حساباتنا ، ونحكم العواطف جانبا ، ونكون أكثر واقعية وإدراكا لمصالحنا الحقيقية ؟

وليست تلك دعوة إلى العزلة ، وترك الحبل لإسرائيل على الغارب ، تفعل فى المنطقة ما تشاء أن تفعل . وليست أيضا تنكرا للعروبة ، ودعوة إلى « فرعنة » مصر ، وتخليصها من زعامتها العربية . وليست كذلك ضغطا أمام إسرائيل ، وخيبة أمل فى إيقافها عند حدها الذى رسمته اتفاقيات كامب دافيد . ولكنها دعوة إلى أن يتحمل كل طرف ما لابد له من تحمله ، حتى لا تتحمل وحدنا أوزار الآخرين ، على حساب مصالح بلادنا ورخاء شعبنا وتقدمه . ولو كانت الأطراف الأخرى صادقة فيما تزعمه من حرصها على حل القضية الفلسطينية ، فقد كان الباب أمامها مفتوحا ولا يزال . ولكنها جميعا تقف مكتوفة الأيدى تتفرج . فإذا كان كسب ، فهو لهم دون شكر لنا ، وإذا كان هناك فشل ، فالعبء على رءوسنا والذنب ذنبنا . وليست هذه بعدالة على الإطلاق .

والكلام كما أنه موجه إلى الفلسطينيين وإلى العرب عامة ، فهو أيضا موجه إلى أمريكا . ان لها المصلحة الأولى فى إنهاء الوضع القلق المضطرب فى هذه المنطقة الهامة بالنسبة إليها . أما نحن – كما قلت – فلن نخسر شيئا . وعلينا أن نبنى ذاتنا ، ونقوى جبهتنا الداخلية ، وندعم ونطور قواتنا المسلحة . ثم نعيش فى أمن واستقرار ، لعوض ما فات ، ولنواجه كل التحديات . وليفعل الآخرون ما يروق لهم ، وليتحملوا مواقفهم . وكفانا ما بذلناه على مدى الثمن وثلاثين عاما . ولم نجن بعد ذلك غير السب والشتم والإهانة .

وإلا فما الذى نفعله ؟

رحيل العملاق

واخيرا رحل العملاق العظيم . المارشال تيتو . كما لابد أن يرحل كل من ولدته أمه . ولكن الناس ليسوا سواسية . فمنهم من يرحل فى صمت لا يترك فراغا . ولا يذكره أحد . ومنهم من تتحدث عنه الملايين بعد رحيله . وتحسب فقدا الرحيل كل حساب . ومن هؤلاء كان تيتو .

عاش كثيرا من السنين . زادتها كثرة ما فعله فيها . وما فعلته فيه هذه الأعوام . عاشها حدادا وجنديا ومناضلا ورئيس دولة . وعاشها سجينا ومنفيا وموقوتا من جميع سكان الأرض . وعانقها يعانق من أعنف ضروب الألم ، ويبتسم بكل ما فى الدنيا من متع . ولم يكن كبيرا بمجرد شعوره بالعظمة ، بل لأنه استطاع أن يثبت عظمته بكل مقياس . فدولته الجديدة التى لا تزيد على عشرين مليونا ، أصبحت من أشهر دول العالم وأكثرها احتراما . ودولته المتعددة الجنسيات واللغات والأديان ، أصبحت من أكثر دول العالم وحدة وتماسكا . وهو الشيوعى الذى ترى فى أحضان الحزب الشيوعى السوفيتى ، وقف – وحيدا – أمام جبروت طاغية الطغاة فى القرن العشرين ، جوزيف ستالين ، لم يهتز أعصابه ، ولم يفقد توازنه ، بل أصر على أن يكون حرا فى بلده ، وحرا فى ارادته . ثم استطاع فى أواسط الخمسينات أن يجمع حوله عشرات الدول فى شتى أنحاء الأرض ، ويؤسس جبهة غير منحازة إلى موسكو أو واشنطن ، فكان ذلك إنجازا عظيما ، وإن أصابه الوهن هذه الأيام .

مات تيتو ، والناس يتساءلون ، ماذا بعده ؟ وما أطل السياسة التى سار عليها سوف يطرأ عليها تغيير ذو شأن . وستظل يوغوسلافيا تيتو حية بعد وفاته ، سائرة فى طريقها بين الشرق والغرب ، محققة لنفسها الإرادة الحرة ، والاستقلال الكامل ، والرخاء الذى استطاع أن يحققه رائدها العظيم .

كان عملاقا متميزا فى عصر العمالقة الكبار وكانت عظمة إنجازاته الكبرى ، مما تظهر له أية صفات سلبية يتصف بها العملاق الكبير . فياه البير الكبير ليست كلها مياها صافية رائقة ناصعة البياض ، ولكنه مع ذلك يظل إلى الأبد بيرا كبيرا !

مشاكلنا الداخلية

بعد بضعة أيام ، يحتفل بثورة مايو ، ولا يجر الاحتفال بغير قرارات جديدة تبدأ بها أسلوبا جديدا فى العمل الداخلى ، ونواجه به ما يؤرقنا من مشكلات .

وقد كثر الحديث عن مشكلاتنا ، وتلك علامة طيبة ، لأننا لم نعد نخفى الحقائق ، ولم نعد نخشى الحديث عما يواجهنا من صعوبات . ولا شك ان المسألة الاقتصادية ، وعلى رأسها مشكلة ارتفاع الأسعار ، هى أهم ما يشغل البال . ومادمنا نتكاشف ونتصارح ، ولا نعمد إلى الخداع والتضليل والتورم ، فلسوف تتضافر الجهود ، حكومية وشعبية لمعالجة هذه المشاكل ، والصمود أمامها ، والمضى فى طريق الرخاء .

والظاهرة الإيجابية التى نلمسها فى الآونة الأخيرة ، هى أننا أصبحنا نشعر بأنه من الظلم الفادح أن نلقى بالوم كله على الحكومة ، ولا نلقى بجانب منه على أنفسنا . فزيادة النسل ، وكثرة الاستهلاك ، وضعف الانتاج ، وقلة ساعات العمل الحقيقية ، وعطلات الروتين ، والتسيب والتحلل وعدم المبالاة ، كلها سلبيات تتحمل عن أوزارها قبل أن تتحملها الدولة . وكنا قبل ثورة مايو ، متكوك الأيدى مكتفى الأفواه ، نترك كل شىء للحاكم يديره وفق هواه . وكان من حقنا فى تلك الحقبة من الزمان أن نلقى بالعبء كله على الحاكم ، لأننا لم يكن لنا حول ولا طول ولا دخل فى رسم السياسة ، ولا فى التخطيط والتنفيذ . أما الآن ، فقد أصبح لزاما علينا أن نفيق ، وأن نشارك فى اتخاذ القرار ، وبذلك نشارك فى تحمل المسئولية والعمل على أن نسير السفينة آمنة سليمة عبر الأمواج .

وهناك آلاف من أوجه القصور فى حياتنا

● محمد مزالى

وتقاليدنا وعاداتنا وقيمنا ، التى ترسخت فى عهودنا طوال النظام الشمولى الذى امتد بنا ربع قرن من الزمان ، بحروبه ومغامراته وضلالاته التى أدت بنا إلى ما نعانيه الآن . صحيح أننا منذ سنوات بدأنا نتحلل من ذلك كله ، وأن نحيا حياة انفتاح جديدة وآمنة وتخطيط مدروس بقدر الإمكان . ولكن ليس معنى ذلك أن تنقلب حياتنا فجأة من الانغلاق إلى الانفتاح ، ومن التواكل واللامبالاة إلى تحمل المسئولية الكاملة ، ومن التراخى فى الإنتاج إلى الانطلاق ، ومن الرغبة الملحة فى الاستهلاك ، إلى الاقتصاد والادخار والاستثمار .

ومن تحصيل الحاصل أن نحاول فى عجالة كهذه أن نضع الحلول للمشاكل ، وأن نقدم الاقتراحات الكفيلة بتخطى العقبات . ثم انه ليس من مهمة الكاتب فى العصر الحديث أن يكون حلالا للعقد ، بل يكفى أن يحمل فى صدره قلبا مخلصا ، وفى يده مصباحا ينير به الطريق . وعلى المختصين والعلماء وذوى الخبرة من المتخصصين أن يضعوا الحلول ، وعلينا نحن الشعب أن نؤدى دورنا ، فى صحوة الضمير .

ولننتظر بضعة أيام ، وسوف نرى ماذا تكون بداية العهد الجديد لتخطى المشاكل ، بعد أن أصبح لزاما علينا أن ننظر إلى الداخل ، لأنه هو الأساس المتين . وليس انتظارنا لوزير يمضى أو وزير يجىء ، فليس هذا هو التغيير المرتجى ولا هو بالحل الجذرى الذى نعول عليه . ان الدولة كلها بسلطاتها الثلاث أو الأربع ، وتنظيماتها الحزبية والشعبية ، ونقاباتها المهنية والعمالية ، وبأفرادها المنتشرين فى المدن والقرى ، تحتاج كلها إلى هزة عاتية ودفعة قوية وأسلوب جديد فى العمل والانجاز .

محمد مزالى

كنا توقعنا منذ اسبوعين مضيا ، أصبح السيد محمد مزالى رئيسا جديدا لوزراء تونس . وكان يشغل منصب وزير التربية القومية كما شغل عدة مهام كثيرة أخرى فى الدولة والحزب على السواء . وهو كالحبيب بورقيبة والهادى نويرة ، من أهالى بلدة المنستير ، التى ولد فيها معظم أفراد الدوائر الحاكمة فى تونس ، شأنها فى ذلك ، شأن تكريت فى العراق .

وقد ولد مزالى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، واجتاز مرحلة التعليم الثانوى فى المدرسة الصادقية ، ثم رحل إلى باريس ، حيث التحق بكلية الآداب ونال إجازة فى الفلسفة ، ودبلوم الدراسات العليا فى الآداب .

وبعد عودته من فرنسا ، اشتغل مدرسا للفلسفة واللغة العربية فى المدرستين الصادقية والعلوية ، ثم فى الجامعة الزيتونية .

وفى سنة ١٩٥٥ أسس مجلة « الفكر » وهى مجلة أدبية ظل يشرف على تحريرها منذ إصدارها حتى اليوم ، كما انتخب رئيسا لاتحاد الكتاب التونسيين . وكان مزالى من شباب الحزب الاشتراكى الدستورى النشط منذ استقلال تونس حتى الآن . وهو بجانب اهتمامه بالأدب والفكر والفلسفة والسياسة ، له اهتمام كبير بالرياضة البدنية وانتخب عضوا باللجنة الأولمبية الدولية منذ عام ١٩٦٥ .

وللسيد محمد مزالى عدة كتب مؤلفة ومترجمة ، وهو يعترف بفضل الغذاء الثقافى والأدبى المصرى عليه ، وما أفاده من قراءة المجلات المصرية الأدبية ، التى كانت تصدر فى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وهو وثيق الصلة بكثيرين من أدباء مصر المعاصرين ، متتبع لما يصدرونه من كتب وأبحاث ودراسات .

وبعد ، هل يستطيع السيد مزالى أن يغير شيئا من الوضع المرهق الذى تعانيه تونس اليوم ، بين جارتين تضغطان ، ودول عربية أخرى متفرقة لم تستطع أن تقف بجانب تونس المعتدى عليها ، وان كانت قد اختارتها مقرا لجامعتها المزعومة ؟

١

■